obeikan.com

عبد الرحمن الرافعي

ولد في ٨ من فبراير سنة ١٨٨٩

وتوفي في ٣ من ديسمبر سنة ١٩٦٦

obeikan.com

محمد فريد
رمز الإخلاص والتضحية
١٨٦٨ — ١٩١٩

إهداء الكتاب

إلى روحك الطاهرة يا فريد، يا رمز الإخلاص والتضحية، إلى ذكراك المجيدة، يا سَيِّد المجاهدين، إلى وطنيتك الصادقة، ونفسك العالية، إلى الذين رَعَوا عَهْدَك، واتَّبَعوا نَهْجَك، وحافظوا على تُرَاثِك، وثبتوا على مبادئك؛ إلى الوطن العزيز الذي ترتسم صورته الصادقة في شخصك الكريم، أهدي هذا الكتاب.

يولية سنة ١٩٤١م

عبد الرحمن الرافعي

obeikan.com

مقدمة الطبعة الثالثة

كان ظهور الطبعة الأولى لهذا الكتاب سنة (١٩٤١م)، والطبعة الثانية سنة (١٩٤٨م)، وها هي ذي الطبعة الثالثة تظهر سنة (١٩٦٢م)، وهي لا تختلف عن الطبعتين السابقتين؛ بل هي طبق الأصل من كل منهما. والله ولي الهداية والتوفيق.

ديسمبر سنة ١٩٦١م

عبد الرحمن الرافعي

openikan.com

مقدمة الطبعة الثانية

ظهرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب في (يولية سنة ١٩٤١م)، وهو يتضمن إلى جانب سيرة الزعيم الشهيد «محمد فريد» تاريخ مصر القومي من (سنة ١٩٠٨م إلى سنة ١٩١٩م)، واليوم تظهر الطبعة الثانية في وقت نحن أحوج ما نكون فيه إلى تعرف تاريخ هذه الحقبة من الزمن، وإلى استذكار بطولة هذا الزعيم فريد.

إنَّ ذكرى العظماء يبدو خلودها بمقدار ملاءمتها لكل زمان، وذكرى فريد لا تتقادم جدتها، ولا تتضاءل عظمتها، فهي أبدًا قديمة جديدة، تتجدد على تعاقب السنين، بتجدد الحوادث والظروف، ونراها اليوم كالنور الساطع، يضيء لنا الطريق فيما يعرض لنا في حياتنا القومية من مسائل ومشكلات هامة، وفي هذا الضوء الخالد نجد الحل السديد لما يتحدث عنه المواطنون.

يتحدثون عن الأهداف القومية، يتحدثون عن تحديدها وتعريفها، ولقد لخصها فريد رحمة الله في كلمته الوجيزة التي قالها سنة (١٩٠٨م) ردًّا على سؤال سأله إياه المستر «كتل» العضو بمجلس العموم البريطاني: «ماذا تطلب من إنجلترا؟»، فأجابه على الفور: «نحن لا نطلب شيئًا منها سوى الجلاء؛ فالجلاء هو الدواء الوحيد للاحتلال».

يتحدثون عن وحدة وادي النيل، وقد أعلنها فريد كلمة صريحة في مذكرته إلى الدول المتحاربة والمحايدة سنة (١٩١٧م) في الحرب العالمية الأولى إذ قال: «إنني حين أتكلم عن مصر أريد كل وادي النيل من أقاصي السودان إلى البحر الأبيض المتوسط، ثم إلى البحر الأحمر بما يشمل كردفان ودارفور، فإنه لا يجهل إنسان أن من يملك أعالي النيل إنما يملك رقبة مصر». إلى أن قال:

«يجب أن يكون وادي النيل لنا وحدنا غير مقسم ولا مجزأ، كما كان كذلك منذ وجد الأب البار لهذا الوادي؛ ألا وهو النيل».

يتحدثون عن معاهدة (٢٦ أغسطس سنة ١٩٣٦م)، ومبلغ تقييدها لمصر، ولقد أبان رحمه الله عن بطلان مثل هذه المعاهدة التي ولدت باطلة؛ إذ هي نتيجة الغصب والإكراه؛ قال في سنة (١٩١٧م): «إنَّ حرية الشعوب لا تنتقل ولا تفقد بمضي المدة، ولا تستطيع الدول أن تتصرف فيها بمعاهدات كما تتصرف في السلع. وإن أية أمة لا تستطيع أن تتصرف في نفسها ولا في وطنها تصرفًا يضر بحقوقها؛ لأن الوطن ليس ملكًا لجيل من الأجيال؛ بل هو ملك للأجيال الماضية والمستقبلة، ولا تستطيع إنجلترا أن تتمسك بأي معاهدة أو عقد أو وثيقة سياسية من هذا القبيل، وعلى فرض وجودها فلا يمكن التمسك بها».

رحم الله فريدًا، وجعل لنا من سيرته، ومن تاريخ الحركة الوطنية في عهده ما يقوي إيماننا بواجباتنا نحو الوطن، ويزيدنا علمًا وتبصرة بحقائق القضية الوطنية.

أغسطس سنة ١٩٤٨م

عبد الرحمن الرافعي

Obeikan.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

هذا كتابٌ وضعته عن تاريخ البطل الشهيد «محمد فريد»؛ مَن وهب لمصر نفسه وماله، وكانت حياته رمزًا للإخلاص لها، وعنوانًا للتضحية في سبيلها، وستبقى ذكراه على مرِّ السنين صورة حية للجهاد الخالص لوجه الله والوطن.

لم تقدر الأمة بعد «محمد فريد» حقَّ قدره، ولا عرفت له عظيم منزلته، ولقد غمرت الحوادث تاريخه وفضله على الحركة الوطنية؛ فمن الحق على الذين ساهموا في الجهاد تحت لوائه أن ينشروا للملأ هذه الصفحة المجيدة من تاريخنا القومي، صفحة محمد فريد وعصره، فلعمري إذا عد أبطال الأمم وقادة الشعوب المجاهدين في سبيل حريتها واستقلالها، العاملين لعظمتها ومجدها، كان فريد في طليعتهم. ومن الواجب علينا أن نستبين هذه الحقيقة، لكي نعرف لأبطالنا أقدارهم، ونهتدي بهداهم، فإن خير إحياء لذكرى الأبطال أن يسمو الجيل إلى مستواهم؛ ليكون بذلك امتدادًا معنويًّا لحياتهم المجيدة.

ولد «محمد فريد» سنة (١٨٦٨م)، ونشأ في بيت عز رفيع العماد؛ إذ كان أبوه «أحمد فريد باشا» ناظر الدائرة السنية سنة (١٨٨٦م)، فهو بذلك لم تعده نشأته العائلية للنضال والكفاح؛ بل كانت تمهد له عيشة رغدًا، بعيدة عن غمار السياسة، وأهوال الجهاد، وتلك كانت بغية والده كما هي بغية كبراء مصر في ذلك العصر؛ إذ كان جل همهم أن يعدوا أبناءهم لتقلد مناصب الدولة، والإفادة من مزاياها، وهذا ما أراده والد المترجم، فلم يكد ينال شهادة الحقوق سنة (١٨٨٧م)، حتى ألحقه بوظيفة تليق بذكائه وعلمه، في قلم قضايا الدائرة السنية، ثم نقل إلى النيابة العمومية وكيلًا للنيابة، فتفتحت أمامه سبل الرقي في المناصب؛ ولكن نفسه كانت متوثبة منذ صباه إلى المثل العليا، فبدأ اتجاهه وهو بعد في وظيفته إلى خدمة بلاده عن طريق

التأليف، فأخرج سنة (١٨٩١م) وهو في الرابعة والعشرين من عمره كتابه: «البهجة التوفيقية في تاريخ مؤسس العائلة المحمدية»، وفي سنة (١٨٩٤م) وضع كتابه في تاريخ الدولة العثمانية، هذا إلى مذكراته في تاريخ مصر، ومقالاته في الصحف والمجلات، ورحلاته وأسفاره في مختلف البلدان. على أنه ما لبث أن رأى حدود المنصب لا تتسع لآماله وجهاده، فاصطدم سنة (١٨٩٦م) والاحتلال البريطاني في قضية هامة، عُرفت بقضية «التلغرافات»، اتهم فيها المرحوم الشيخ «علي يوسف» صاحب جريدة (المؤيد) بإذاعة أسرار وزارة الحربية ونشرها في صحيفته؛ فقدم للمحاكمة، وكان المترجم وكيل نيابة بالاستئناف، وكان يجهر بميوله الوطنية، ويعلن عن عطفه على قضية (المؤيد)، ومعارضته لسياسة الاحتلال؛ فلما صدر الحكم الابتدائي ببراءة صاحب (المؤيد)، قررت الوزارة نقل المترجم إلى مغاغة في (نوفمبر سنة ١٨٩٦م)، تهديدًا لوكلاء نيابة الاستئناف، قبل نظر القضية أمام محكمة الجنح المستأنفة، فرأى الفقيد في هذا النقل اعتداءً على استقلال القضاء وامتهانًا لكرامته، فثارت نفسه لهذا العدوان، وآثر الاستقالة من منصبه؛ لكي يجاهد في سبيل تحرير بلاده، وانتظم في سلك المحاماة، وكان أول من اشتغل بها من أبناء السراة والكبراء، ومن ذلك تدرك مبلغ شجاعته في الخروج على تقاليد عصره، وقيود بيئته، وميله الفطري إلى الحرية، في وقتٍ لم تكن هذه الميول شائعة أو مألوفة.

واتصل منذ سنة (١٨٩٣م) بالمرحوم «مصطفى كامل»، لاتفاقهما في الميول والمبادئ الوطنية، وتوثقت عُرى الصداقة بينهما على مر السنين، فصار المترجم زميل مصطفى المخلص، وصديقه الوفي، وعضده الأكبر في بعث الحركة الوطنية، لازمه وأيده في جهاده، وبذل له ما بذل من العون الأدبي والمادي، وظل وفيًّا له طول حياته، وقد صحبه في كثير من رحلاته، واجتمعا بها معًا برجال السياسة والصحافة، وكتَّابها المشهورين، وناب عنه خلال (صيف ١٩٠٧م) في الإشراف على «اللواء» وإدارة جريدتي «ليتندار إجبسيان» و«ذى إجبشيان استاندرد» حينما سافر مصطفى

إلى أوربا، وكان يراه خير خليفة له في قيادة الحركة الوطنية، فاختاره وكيلًا للحزب الوطني في أول جمعية عمومية له، وأوصى بانتخابه رئيسًا من بعده.

ولما توفي مصطفى في (فبراير عام ١٩٠٨م) تولى المترجم الرئاسة من بعده، واضطلع بأعباء الزعامة، في ظروف أشد وأحرج من ظروف سلفه العظيم.

وإذا كانت وفاة مصطفى قد أحدثت فراغًا في الصفوف يصعب سده، فكان لا بد لمن يخلفه أن يجمع من الصفات والمواهب والمزايا، ما يجعله أهلًا لسد هذا الفراغ الكبير، ولقد برهن الفقيد على أنه خير خلف لأعظم سلف.

هذا إلى أن وفاة الزعيم الأول، وما أحدثته من قوة واستقرار في الشعور الوطني، قد نبهت الاحتلال إلى خطر الحركة الوطنية، وعظم شأنها، وحفزته إلى مضاعفة الجهود لاضطهادها وإخمادها، واتبع سياسة جديدة للوصول إلى هذه الغاية، وهي «سياسة الوفاق» التي عقدت أسبابها بين الخديوي والمعتمد البريطاني السير إلدون جورست، وحلت محل سياسة الخلاف والمشادة التي كانت قائمة بين الخديوي والاحتلال في عهد اللورد كرومر، وبذلك استهدفت الحركة الوطنية لمحاربة السلطتين المتحالفتين؛ وهما السلطة الفعلية ممثلة في عميد الاحتلال، والسلطة الشرعية ممثلة في الخديوي والوزارة، فعظمت أعباء الجهاد، وتحرج الموقف، ولكن الفقيد لم يهن ولم يضعف بل استمر في نضاله، وقاوم الاحتلال باستمساكه بالجلاء، ودعوة الأمة إلى الالتفاف حول رايته، كما قاوم الخديوي والاحتلال معًا باستمساكه بالدستور، ودعوة الأمة إلى المطالبة به، وثبت للحرب تجيئه من الناحيتين، فناله من أذاهما وشرهما أكثر مما نال مصطفى كامل، وعانى من خذلان، كبراء مصر ووزرائها ورجالها البارزين أكثر مما عانى الزعيم الأول؛ إذ أخذوا يتنكرون للحركة الوطنية، ويتسابقون في الكيد لها؛ ابتغاء الزلفى للاحتلال، أو التقرب للحكومة؛ حرصًا على المناصب والمنافع تغدق عليهم من الناحيتين، وأمعنت الحكومة في محاربة الحركة الوطنية بوسائل القمع والاضطهاد، فقيدت

حرية الصحافة، وأعادت قانون المطبوعات القديم، وسنت القوانين الاستثنائية الرجعية، كقانون الاتفاقات الجنائية، وإحالة الجنح الصحفية إلى محاكم الجنايات، وطبقت هذا التشريع على الفقيد، بأن قدمته إلى محكمة جنايات القاهرة، في تهمة صحفية لا أساس لها من الحق، وقضت عليه المحكمة في (٢٣ يناير سنة ١٩١١م) بالحبس ستة أشهر، فكانت سنة (١٩١١م) بداية المحن الكبرى التي أصابت المترجم في حياته الوطنية.

وقد تلقى رحمه الله هذا القضاء بقلبٍ ثابت، وإيمانٍ لا يتزعزع، وخرج من السجن بعد استيفاء مدته، أثبت ما يكون فؤادًا، وأقوى عقيدة وإيمانًا، ومضى في جهاده لا يلوي على شيء، ليكمل العمل الذي بدأه مصطفى، فاستخدم الوسائل والأسلحة التي ساهم فيها مع سلفه العظيم، وزاد عليها المؤتمرات، يعقدها في أوربا أو يشترك فيها، ويرفع صوت مصر بين أعضائها، من مختلف الشعوب والأجناس، فاشترك في مؤتمر الشبيبة المصرية بجنيف (١٩٠٩م)، وفي مؤتمر السلام العام باستوكهلم في (أغسطس سنة ١٩١٠م)، وعقد المؤتمر الوطني ببروكسل في (سبتمبر سنة ١٩١٠م)، وأسمع العالم في هذه المواطن كلها صوت مصر، ودافع عن مطالبها، وترجم عن آمالها في الاستقلال، وشكايتها من الاحتلال، وكان لهذه المؤتمرات صداها في مصر؛ إذ كانت تقوي في نفوس الأمة روح المقاومة والشجاعة، وتعود أبناءها النضال والكفاح، وتطالعهم بحقائق المسألة المصرية، في مختلف نواحيها السياسة والاقتصادية والاجتماعية، فكانت لهم شبه مدرسة أنارت بصائرهم، وصقلت أذهانهم، وغرست فيهم الروح الوطنية والفضائل القومية.

حمل الفقيد على تعاقب السنين لواء الحركة الوطنية، وأحياها بجهاده، وخطبه مقالاته، وأحاديثه واجتماعاته ورحلاته وأسفاره، كما غذاها بثباته وتضحياته، فلقد ضحى بماله يبذله عن سخاء في الدفاع عن القضية الوطنية، وضحى بوظيفته في سبيل الاستمساك بمبدئه، ثم ضحى بمهنته التي اختارها بعد استقالته من وظيفته؛

إذ اعتزل المحاماة سنة (١٩٠٤م)، لكي ينقطع للجهاد؛ فعظمت بذلك تضحياته المالية، وحرم موردًا كان يدر عليه الربح الوفير؛ ضحى بالمناصب والرتب والألقاب التي كان ينالها لو سلك مسلك غيره في تأييد الاحتلال، أو لو أنه اكتفى بمسالمته، والابتعاد عن مقاومته، وضحى براحته وصحته، وآمال الشباب في رغد الحياة ورفاهية العيش، واستهدف للسجن والنفي والتشريد، وبدأ منفاه سنة (١٩١٢م)، فلم ينقطع جهاده في سنوات النفي؛ بل كانت سلسلة متصلة من الكفاح والنضال في سبيل مصر؛ إذ دافع عن القضية الوطنية في مؤتمر السلام بجنيف في (سبتمبر سنة ١٩١٢م)، ثم بمؤتمر السلام في الهاي سنة (١٩١٣م)، ثم في الصحف والمجلات، وفوق أعواد المنابر، وفي المجتمعات، في كل بلد ينزل به. ولما شبَّت الحرب العظمى الماضية سنة (١٩١٤م)، استمر في نضاله عن مصر، وشعاره الذي لا يتبدل «مصر للمصريين». وكان لا يفتأ يعلنه على رءوس الأشهاد، بين الدول المتحاربة والدول المحايدة، ويجهر به في وجه إنجلترا وحلفائها، كما جهر به في وجه ألمانيا وتركيا، وقد استهدف من أجل ذلك لغضب الأتراك في خلال الحرب، فلم يبال غضبهم، كما لم يبال من قبل ومن بعد غضب الاحتلال وصنائعه، وحمل بذلك لواء الاستقلال والجهاد، في وجه كل دولة وكل سلطة تناوئه؛ فكان حقًّا البطل الأكبر لهذا الاستقلال، والمجاهد الأعظم بنفسه وماله في سبيله.

تأثرت صحة الفقيد من استمراره في الجهاد والكفاح، وزادت سنوات النفي ومتاعبه في اعتلال صحته، فمرض بالقيلة المائية في (مارس سنة ١٩١٨م)، ولم يقعده المرض عن متابعة النضال، فكان كلما أحس من نفسه القوة والقدرة، عاود العمل للدفاع عن قضية الوطن، ونصح له الأطباء حين اشتد به المرض أن يعدل عن جهاده أو يخفف منه، ويسالم الاحتلال أو يهادنه، حتى يستطيع العودة إلى مصر؛ إذ كانت صحته تقتضي استشفاءه بمناخها، وإقامته تحت سمائها، وقد صارحوه بالخطر على حياته من بقائه في جو أوربا البارد، وأن صحته لا تحتمل (شتاء سنة ١٩١٩م)؛ ولكنه رفض نصيحتهم ولم يقبل أن يتنازل قيد شبر عن مبادئه، وعمل

بكلمته المأثورة التي قالها سنة (١٩١٠م): «إننا نعرف كيف نصبر على المكاره؛ ولكننا لا نعرف التسليم في حقوقنا ولا التنازل عن مطالبنا». وظل يجاهد ويناضل حتى وافاه الأجل المحتوم في برلين؛ ففاضت روحه الطاهرة (يوم ١٥ نوفمبر سنة ١٩١٩م)، مات رحمه الله غريبًا عن بلده نائيًا عن الأهل والولد والخلان، بعيدًا عن مصر التي أحبها، وضحى بحياته وماله وروحه من أجلها.

إنَّ تاريخ «محمد فريد» وهو ولا غرو تاريخ لسني الجهاد، من فجر الحركة الوطنية الحديثة؛ فلقد شارك مصطفى في بعثها منذ سنة (١٨٩٣م)، وتولى قيادتها بعند وفاته في (فبراير سنة ١٩٠٨م) إلى أن لحق به بالرفيق الأعلى في (نوفمبر سنة ١٩١٩م)، فكانت هذه السنوات الأخيرة صفحات مجيدة من تاريخنا القومي، ولولا ما خطَّه فيها من تضحيات وآلام، وما بعثه في نفوس الجيل من إخلاص وشجاعة وثبات وإيمان، لما كان لمصر تاريخ وطني في ذلك العهد، ولا نقلب هذا التاريخ سلسلة من خضوع للاحتلال، وضعف في الأخلاق، فهذه الحقبة من الزمن التي غذاها الفقيد بوطنيته وإخلاصه، وبذل فيها ما بذل من ماله وقلمه ولسانه، ورواها بروحه ومهجة فؤاده، هي ولا ريب معين لا ينضب من الفضائل القومية. وإن هذا الكتاب ليتصل من هذه الناحية بالماضي والحاضر؛ أمَّا صلته بالماضي فلأنه يحتوي على تاريخ بطل من أبطالنا العظماء، كما يشمل تاريخ مصر القومي من سنة (١٩٠٨ إلى سنة ١٩١٩م)، وأمَّا صلته بالمستقبل فإن التاريخ يفسر بعضه بعضًا، ولأننا في حاجة إلى أن نسمو بمستوى الوطنية في قلوبنا، ونحاسب أنفسنا على ما قصرنا في حق الوطن، وننمي عقيدة الإيمان بالواجب بين طبقات الشعب، يستوي في ذلك الكبير والصغير، والغني والفقير، والرجال والنساء، والسياسي والموظف، والزراع والصانع، والتاجر والمالك، والطبيب والمحامي والمهندس، هؤلاء جميعًا لو أدَّى كل منهم واجبه نحو الوطن؛ لسعد بهم، ولكانت حالنا خيرًا مما نحن فيه. وإن ذكرى الأبطال لخليقة بأن تطهر نفوسنا، وتبعث فيها روح الإيمان بالواجب، والإخلاص في أدائه، وإنها لكتاب منشور، تقرأ فيه الأجيال المتعاقبة آيات الوطنية

الصادقة، وقوة العقيدة، وتضحية المنافع الشخصية في سبيل سعادة الوطن ومجده، وتلك لعمري عُدة الأمم، وذخيرتها الدائمة في حياتها القومية؛ وهذا هو جل ما أقصد من إخراج هذا الكتاب.

فاللهم ألهمنا السداد في القول، والإخلاص في العمل، وأيدنا بروح من عندك، إنك نعم المولى ونعم النصير.

يولية سنة ١٩٤١م

عبد الرحمن الرافعي

obeikan.com

obeikan.com